المثقف الآن

ناجم المعموري

اهتم اتحاد الادباء في بابل منذ بداية هذا العام بوضع اطار جديد لفعالياته الثقافية المعروفة في يوم كل خميس من الاسبوع وتمثل هذا الاطار بالاتفاق على ما له صلة مباشرة ويومية مع حياة المواطن اليومية وتفاصيلها المعروفة للجمع وفي وقت صمتت فيه تجمعات الادباء والمثقفين او اكتفت بالحد الادنى من النشاط الذي يشير الى وجود هذه المنظمة او تلك الفعالية المدنية، وأجد أن الاتحاد في بابل ظل اميناً على تقاليده الثقافية التي انتجها منذ اكثر من ثلاثين سنة، واعني بها اخضاع النشاط للبرمجة، حتى يحقق النشاط صفته الثقافية في التواصل مع المواطن وتوسيع مساحة المشاركة فيه والقبول بدور تبادلي للثقافة والفكر. وما اريد الاشارة إليه هنا هو ضرورة ان يكون الفعل الثقافي والفكري متابعاً لما يحصل الان في حياتنا الاجتماعية / والسياسية / والاقتصادية، حتى يأخذ مكاناً مركزياً، لحظتها ستكون تأثيراته مباشرة وقوية، من هنا انتهى البرنامج الاول الذي كرس عدداً مهماً من الحلقات الشهرية المعنية بموضوع الهوية وما شهدته من صراعات قبل السقوط وما يحصل عليها الان من تشوهات وتفكك، ولهذا تميزت تلك الحلقات النقاشية في مجال التشكيل / والمسرح / والفكر العربي الاسلامي واثارت كثيراً من الحراك والاختلاف، وتحولت الى فرصة جديدة، ثقافية وسياسية لتبادل الراي واحترام الاخر المختلف وصولاً الى حقيقة الدور الذي بامكان المثقف ان يلعبه ويؤديه الان حاضراً ومستقبلاً. واتفق جميع من أسهم في هذه الحلقات على الحيوية التي تمتعت بها والفاعلية المميزة لها، لما استدعى مشاركة واسعة جداً من الادباء والمثقفين والفنانين فيها وتحقق هذا النجاح الثقافي، جعلنا نحافظ على الاطار الذي ابتدأناه قبلاً وفي برناج جديد، كرس موضوعة المثقف الان والدور المرسوم له وما هي طموحاته واحلامه وتوقعاته ؟ من هنا كانت الاماسي الجديدة مهتمة بشكل واضح بالدور الطليعي للمثقف في الحياة السياسية وضرورة مشاركته في التحولات التي مازال بعيداً عنها، او ابعد عنها بقصدية واضحة وتركه منشغلاً بهموم ذاتية بسيطة، كاشفة عنها المقالات التي يكتبها وينشرها في الصحف، او يصرح بها عبر الفضائيات.

وقد كشفت الامسية الاخيرة والخاصة بعلاقة المثقف والديمقراطية عن تراكم واضح للعلاقة بين السياسي والمثقف، واثيرت ملاحظات كثيرة عن الدور المغيب للمثقف وتمركز السياسي وهيمنته واقصاء الاخر عن الفعالية الاجتماعية والسياسية.

وما اريد التأكيد عليه هو ضرورة ان تكون الفعالية الثقافية مستمرة وخاضعة للضرورات الملحة والوظائف التي تستدعيها المرحلة الحالية مع كل ما يشوبها من ارتباك وخلخلة، لاني اعتقد بفعالية المثقف وقدراته الكبيرة على تنظيم الفعل الاتصالي الثقافي وتحفيز جمهرة واسعة جداً من المواطنين للمشاركة فيه ولعب دور حيوي فعال، وغلق الابواب بالكامل على ما هو ثانوي وغير مؤثر في العلاقات الثقافية، ولن يستطيع احد استبدال دور المثقف واحلال بديل له، لا الان ولا في وقت اخر، لكن هذا يستدعي ايضاً المبادرة الفردية والجمعية والامساك بها في زمن هو من اخطر الازمنة في تاريخ الثقافة والفكر في العراق.

لحظة المثقف الجديدة

ترتفع الان اصوات الادباء والكتاب مطالبة بدور وطني في الكتابة الجدية للدستور العراقي الجديد .. والمطالبة مشروعة وضرورية، لان المثقف اكثر الفئات الاجتماعية تعطيلاً لدوره وقدراته منذ لحظة سقوط النظام الصدامي ... انه الان يريد دوراً جديداً في تحولات العراق وان يلعب ما يناسب مكانته التاريخية والثقافية بوصفه صوتاً وطنياً تعرض الى الكثير من التهميش والطرد من الحياة وكان متمسكاً بدوره في الحياة الفكرية وساعياً للامساك بالفرص مهما كانت بسيطة من اجل ان يكون موجوداً في الممارسة الثقافية والفعل الفكري الذي كان يحصل انذاك وفعلاً استطاع المثقف ان يشير نحو مشروعه المشترك مع الاخرين وان يكون مؤثراً، لذا استطاع عدد غير قليل من الادباء والباحثين التاكيد على ممكنات الثقافة العراقية على مقاومة الثقافية الواحدة والشمولية، ولذا برزت مساهمات حقيقية وجدية، قادها ادباء شباب في هذا المكان او ذاك ومن خلال المؤسسات الرسمية والجامعات، من اجل توفير الغطاء لحماية تلك الانشطة ... وعلى الرغم من كل الحساسية السياسية التي كانت تثيرها تلك الفعاليات لكن الشباب كان حريصاً على وجود وانتهاز الفرص المتاحة. وفعلاً ظلت الحياة الثقافية منشغلة بانجازات العديد من المبدعين والنقاد الذين وجدوا في الداخل المحاصر بالجوع والسلطة فرصتهم الوحيدة وتميزت تلك الفعاليات بدورها الطبيعي الفعال والمؤثر ملمحاً ثقافياً مدعوماً من البعض العامل في الصحف والمجلات، مثلما خضعت تلك الانشطة لما يشبه التنسيق المشترك، لان النسبة من الفاعلين في هذا الاتجاه كانوا اصدقاء يوحدهم مشروع وطني للثقافة والفكر وتجمعهم المقاهي يومياً، لكننا نجد بعد سقوط النظام الصدامي ركوداً ملفتاً للانتباه ومثيراً للحوار والمناقشة، بحيث ظلت الحياة الثقافية ساكنة او ما يشبه التعطل، وما ينشر في الصحف والمجلات مثير في حدود لا تتعدى زمن القراءة فقط، ولم ينشغل الوسط الثقافي العراقي بقضية لها علاقة بالحياة السياسية والثقافية وهذا امر غريب وملفت للانتباه، مع ان حياتنا صاخبة صافية وما يحصل فيها دموي وكارثة، لكن المبدع والمثقف مكتف بالموقف السلبي المراقب، واذا حفزته ظاهرة ما لها علاقة بالمواطن وحياة العراق، يسارع الى كتابة مقال او عمود صحفي، وهذا ما يكفيه ... هذه الظاهرة السلبية بحاجة الى مناقشة او اثارة وتبادل لحوار مع الادباء والمثقفين الحالمين بأدوار قيادية في ثقافة البلد او عبر منظمات المجتمع المدني الكثيرة، ونتيجة لهذا الطموح او الحلم الغريب نرى تجمعات طافية فوق السطح الثقافي معلنة عن موتها لحظة ولادتها وكانها قضية غير موجودة.

متى تحين الفرصة لحركة المثقف ؟ وفي أي وقت سيبادر من اجل لحظته الجديدة التي سيكون فيه الدور له اولاً واخيراً وان يغادر منطقة الشكوى والتذمر من التهميش والملاحقة بالطرد او الخطف والاغتيال، وانا اعتقد بأن المثقف وحده القادر على رسم مساحة خلاصه وانقاذ ثقافة العراق مما هي عليه الان، حتى تتخلص كلياً من ورطته التاريخية في التفرج على ما يجري وكأنه خارج دائرة التحول والممارسة السياسية التي ارجو ان لا يفهم منها الانخراط الفعلي السياسي وانما المبادرة والفعل في الوظائف التي بأمكانه ممارستها كمثقف تتسع له المساحة بين المواطنين كي يمارس فعله الاصلاحي والتنويري وضرورة مغادرته منطقة الوسط الحساسة جداً واختيار مركز الحياة ورفع صوته عالياً ضد العزل والطرد ومحاولات ابعاده عن المشاركة في التحولات التاريخية التي عرفها العراق وسيعرفها عما قريب جداً ولعل اهم تلك التحولات هي لحظة الدستور العراقي الجديد وماذا عليه ان يفعل ؟ واي الطرق سيختار للمساهمة، معبراً عن نشاطه الثقافي ؟ ولابد له من الاعلان عن قوة الثقافة التي من غير الممكن عزلها او طردها من حياة العراقيين، لانها وان همشت قصدياً، فقد ظلت انذاك صوتاً نظيفاً وصافياً استطاع ان يحقق انجازات كبيرة ومشهودة للباحث الذي سيدرس تلك المرحلة في يوم من الايام ... لابد للمثقف من صحوة وصوت مسموع قادر على ايصال رسالته للجميع، وخسارة هذه الفرصة تمثل لعنة وستظل ملاحقة لنا عبر التاريخ، وان الاكتفاء بغيرنا من اجل حاجاتنا امر خطير، فالسياسي لن يكون بديلاً كاملاً للمثقف في كل المراحل والمنعطفات التاريخية، وما يستطيع عليه السياسي ليس صعباً على المثقف تأديته، لكن السياسي يظل عاجزاً وحائراً امام الفرصة الثقافية التي لن يستطيع عليها لانه وان حاز على بعض الخصائص الثقافية، فأنه غير مؤهل لخوض غمار الحراك الثقافي والصراع الحاصل ... انها لحظة المثقف الوطني والديمقراطي الشريف .

وعليه الدخول اليها بكل قوته وثقله، لانه هو المستهدف بالارهاب الدموي والعنف الثقافي الرمزي الذي بدأنا نقرأ تفاصيله في الحياة والفعاليات الاجتماعية والثقافية ... لابد من لحظة يدخلها المثقف بكل قوته ووحدة قواه واتفاقاته على برامج مشتركة تعود للخلاص.

أدباء وكتاب في الفرات الوسط يتحدثون عن كتابة الدستور

ينشغل الادباء والكتاب هذه الفترة بالدستور والتحضير لكتابته ومشاركة الفعاليات السياسية والاجتماعية ومنظمات المجتمع المدني في هذه التجربة الديمقراطية الجديدة، ولان الادباء والكتاب يمثلون طليعة واعية في الحياة العراقية، توجب عليهم الادلاء بملاحظاتهم وتصوراتهم عن الدستور العراقي المرتقب، كما يعتقد الكثير منهم بأن الحركة الثقافية قادرة على لعب دور مهم في هذا المجال وان لم يتم انتخاب من يمثل الادباء والفنانين في لجنة كتابة الدستور، ولانهم مشاركون في الحراك العام وسط البلاد فأن فرصهم في ابداء الراي والتعبير عن وجهات نظرهم تتخذ مسارات عديدة ربما لن تتوفر لغيرهم من الفئات والمنظمات، وذلك عبر الصحافة والمشاركة فيها او الندوات والمحاضرات والحلقات الدراسية والنقاشية وايضاً السياسية لذا حاورت المدى عدداً من الادباء والمثقفين في الفرات الاوسط حول الدستور العراقي المنتظر، وتصوراتهم عن المرحلة الجديدة وما يمكن ان يتضمنه الدستور من كفالات خاصة بالادباء والمثقفين من اجل حياة حاضرة لائقة بهم ومستقبلية سعيدة.

فاعلية المثقف في الحياة

قال القاص والناقد جاسم عاصي أن الدستور القادم فرصة العراقيين جميعهم وتحديداً الادباء والكتاب في تحديات دقيقة ومنضبطة مع ما هو مطلوب من العراقيين جميعاً. وتقع علينا مسؤولية كبيرة في ابداء الاراء والكتابة في الصحافة عن توجهاتنا الوطنية والديمقراطية في مجالات الثقافة والفن، نريد ما يكفل لنا حريتنا وحماية كرامة الاديب والمثقف من الهجمات الضدية التي مازالت الى الان لا تدرك حيوية التنوع والاختلاف لانهما يدفعان بالحياة نحو الامثل وهذا ما نريده ونسعى جميعاً لتحقيقه وجعله امراً قائماً ولا عودة عنه، وهذا يستدعي انتباه لجنة كتابة الدستور الى ذلك واهمية تحاورها مع الادباء والاستماع لوجهات نظرهم لان استبعادهم عن المشاركة الفعلية في كتابته الغاء دورهم الذي لا يمكن لاي قوة ان تمارس ضدهم عملية الاقصاء.

نريد دستوراً يفضي بالعراق نحو مستقبل زاهر، ينضم فيه الجميع بالتآخي والتآزر ويلعب الكل دوراً بارزاً في رسم خريطة وطن ديمقراطي، تعددي، فيدرالي، يكون فيه للقوميات والاقليات والطوائف مجال قادر على استيعاب طاقاتهم وقدراتهم من اجل خدمة العراق الجديد والمغاير.

الاستماع للمثقف شرط وطني

واشار الاستاذ احمد الناجي المهتم بقضايا المجتمع المدني ودوره في الحياة الجديدة الى ان: للمثقف امكانات عالية في رسم صورة الحاضر السياسي ومستقبلنا القريب والبعيد، مثلما كان في الماضي معبراً عن آمال وطموحات الشعب ومشاركاً في النضالات الوطنية والتحررية. ان التشكل الوليد للحاضر العراقي يوفر فرصة للمثقف كي يأخذ زمام المبادرة وينشط عبر ممارسته وفعله الاصلاحي، مستفيداً من تجارب وطنية ساهمت بدور مشرف في حركة الثقافة ونهضتها الفكرية في ازمنة ماضية، بحيث صار له رصيد وطني متميز وملفت للانتباه.

واجد ما يتوجب القيام به الان مضاعفاً، لان المرحلة التي نعيش لا يمكن اغفال صعوبتها وخطورتها، لانها شاهدة على اهم المتغيرات الاجتماعية / السياسية / الثقافية التي عرفها العراق الحديث، ومثل هذه التحولات تستدعي من حركة المثقفين والادباء دوراً مهماً في كتابة الدستور وضمان مستقبل للمثقف والفنان والاعلامي والتأكيد على حريته ووظيفته المصانة بنصوص دستورية.

كما اجد ضرورة التأكيد على محاورة المثقفين والانصات لهم والاخذ بمقترحاتهم الخاصة بحقول الثقافة التي لن يكون لغيرهم امكانات التعويض عنهم. واشراك الادباء والمثقفين سيقلل من احساسهم بالهوة في الحياة العامة وتأشير افضلية السياسي التي ابتدأت في الاونة الاخيرة تتشكل وتتضح في الحوارات والفعاليات الثقافية المعمقة لها. وكل ما يبذله المثقف الان داعم للتحولات ومساند لها وقد قدم المثقف كثيرا من التضحيات ومازال حتى هذه اللحظة، حتى صار قرباناً للديمقراطية، وتكشف لنا الاخبار والوقائع استهداف المثقفين من قبل الجماعات الارهابية، لمعرفتهم بالدور التأريخي المرتبط بهم منذ تشكل الدولة العراقية الجديدة وحتى هذه اللحظة.

منظمات المجتمع المدني

وقال الاستاذ والباحث حسين الجبوري :

لا يمكن اغفال الدور السياسي / والاجتماعي / والثقافي للمنظمات غير الحكومية والتي ستنهض بدور كبير في التحولات، كما انها دليل على وجود ديمقراطية في حياتنا، وهي تجربة جديدة. وبما ان منظمات الادباء والمثقفين جزء حيوي من التكونات غير الحكومية، فلابد لها من لعب دورها وان تأخذ فرصتها الضرورية في الجديد الذي سيحصل، واعني كتابة دستور جديد ومختلف تماماً، ولابد للمنظمات الادبية والفنية من فرصة كي تعبر عن موقفها وتطلعاتها المستقبلية وارى بأن الاستماع لهم اكثر من ضروري، حتى تتخذ المشاركة في الكتابة صفتها الجماعية، وما دمنا نسعى لدستور مختلف فلابد للجميع من المشاركة في الراي والاقتراح والادباء افضل من غيرهم في تمثيل ما تقترحه الحياة الثقافية المستقبلية ولابد من وجود ضوابط لها في الدستور توضح افاقها ومدياتها، لان المثقفين مجال مهم في صياغة وبلورة ديمقراطية المستقبل.

كتابة الدستور لحظة عراقية فريدة

وقال الشاعر الكبير موفق محمد ان كتابة الدستور ومن ثم التوصل الى صياغة عراقية، هي لحظة تاريخية ذات خصائص عراقية وتمثل بداية تحول كبير في الحياة السياسية ليس في العراق فحسب، وانما في دول الجوار، لان تأثيرات ذلك ستتضح في اللاحق من الاشهر وسيكون تأثيرها كبيراً للغاية ونطالب بنصوص واضحة تشير لحماية المثقف والدفاع عنه وصيانة اسمه وحريته من الحملات السلفية التي نتوقع بروزها حتماً وستعود حملات ضد الثقافة والابداع والفكر التنويري.

نريد دستوراً ضامناً للحرية ومؤكداً على الديمقراطية والاختلاف وحق التعبير المكفول بالانظمة والتشريعات ونطالب بحق التساوي بين الجماعات في الحقوق والواجبات والتعامل مع المواطنة شرطاً للقياس وضمان حقوق الافراد والجماعات في حماية تراثهم الثقافي القومي والعناية بالهويات العديدة في العراق. ولابد لنا من توفير سقف تشريعي لممارسات الافراد في الحياة الاجتماعية مع حماية المساواة بين الافراد والمثقفين.

قربان التاريخ شهادة حية لشاعر عراقي عاش التحولات المأساوية في الحياة العراقية المعاصرة.. شهادة تأرجحت بين قيام الدكتاتورية وهيمنتها على مجمل مفاصل الحياة والفكر بقوة الحديد والنار وبين سقوط رمز هذه الدكتاتورية وصنمها.هذا الكتاب يوميات مراقبة للقمع والمصادرة والموت مثلما هو رصد لحركة الشعر والفكر.هو قراءة امتزج فيها السياسي بالشعري ، عبر يوميات قامت بوصف ، ومن ثم فهم حوادث مأساوية اشبه بفصل كابوسي من رواية دموية حدثت في عالم آخر غير عالمنا.

المدى الثقافي

قربان التاريخ
العراق من لهب العقل الى رماد النفط

صلاح حسن

الفصل الثالث

٣

اللغة المشفرة

لم استطع النوم ليلة البارحة .. فقد كنت على موعد مع الكوابيس . وبعد ان طلع الفجر توجهت الى المدينة حيث مقهى العاصمة وشربت ثلاثة فناجين من القهوة الواحد تلو الاخر بأنتظار ان تفتح دارة البريد . ملأت الاستمارة الصغيرة ووقفت انتظر حتى تناديني عاملة البريد . بعد قليل اشارت الى (الكابينة رقم اربعة) ..

- هلو .. جوليانه ؟
- دقيقة .. جوليانه .. تعالي بسرعة .. صلاح ..
- هلو .. كيف حالك ؟ (بكاء من الطرفين)
- هل تستطيعين المشي ؟ كيف اصبح ظهرك ؟
- نعم .. الحمد لله .. صلاح .. اسمعني جيدا .. انت ستبقى في عمان اليس كذلك ؟ .. هل تفهم ما اعني ؟
- نعم .. لم اجمع كثيرا من المال حتى هذه اللحظة . كيف حال الاطفال ؟ سأصاب بالجنون .
- عليك ان تصبر.. الاطفال بخير ويريدون رؤيتك .. ولكن ليس الان .. هل تفهم؟
- حسنا .. سأتصل بك مرة اخرى هذا المساء .
- هذا المساء ؟ فكر جيدا .. هل تفهم؟

بعد هذه المكالمة اصبحت اكثر تشوشا .. لم تدعني زوجتي اتكلم كثيرا ، ثم لماذا ظلت تكرر مفردة (هل تفهم) ؟!؟ عدت مرة اخرى الى المقهى وتناولت كوبا من القهوة وانا افكر ... ماذا ارادت ان تقول ؟؟ هناك شيء ما يقلقها ؟ هل تظن انني يمكن ان اعود الى بغداد في هذه الظروف ؟ لا .. هناك شيئ اخر ... اللعنة ... فهمت الان : التلفون مراقب ! هذه هي الحكاية .

في السادسة مساء كنت في غاليري الفينيق بأنتظار البياتي . وها هو يأتي كعادته في السادسة تماما . وقبل ان يجلس سألني ان كنت قد اتصلت بالعائلة ؟ قلت له يبدو ان التلفون مراقب .. لم استطع ان افهم من زوجتي الكثير .. لقد وعدتها بأنني سأتصل مرة اخرى هذا المساء . في دائرة البريد لا تستطيع ان تتكلم بهدوء . قال : هل علي الشلاه موجود ؟ قلت نعم .. في غرفة الادارة . قال : قل له ان البياتي يريدك . عندما جاء علي طلب منه البياتي ان يتصل بأبي عبد الله وان يعمل معه موعدا الان. (ابو عبد الله مدير مكتب جريدة الشرق الاوسط في عمان) . بعد عشر دقائق وصلت سيارة سوداء فخمة جدا فقال البياتي ، هيا سنتصل من مكتب ابو عبد الله . على باب العمارة وجدنا ابو عبد الله بأنتظارنا وكانت سعادته لاتوصف بزيارة البياتي . بعد السلام والقهوة طلب البياتي من ابو عبد الله ان يسمح لي بأستخدام الهاتف فأجاب ابو عبد الله : انت تأمرني ياسيدي وقادني الى مكتب فارغ وقال خذ راحتك .. تصرف وكأنك في بيتك . ثم خرج بعد ان اغلق الباب .

- هلو .. جوليانه ؟
- نعم .. كيف حالك ؟
- الحمد لله .. كيف حالكم انتم ؟
- كيف هي عمان ؟ هل انت مرتاح هناك ؟ هل تفهم ما اعني ؟
- نعم .. افهم قصدك .. هل تريدين ان نتكلم مثل ايام زمان ؟
- بالضبط .. مثل ايام زمان .. الحمد لله ... ماذا سترسل لنا هذه المرة ؟
- سأرسل لك ملابس جديدة ومبلغا من المال ..
- اريد ان اجري لظهري عملية جراحية اخرى ..
- متى ؟
- اذا ارسلت لي مبلغا جيدا سأقوم بأجرائها فورا ؟
- ٥٠٠ دولار تكفي ؟
- نعم .. مع اشياء اخرى !!
- المبلغ جاهز وقد جمعته من اجل العملية .. هل تفهمين ؟
- حقا؟ هل فكرت بذلك ؟
- بالتأكيد .. هل انت جاهزة للعملية .. انها ليست سهلة ؟
- اعرف .. اريد ان اتخلص من الالم .. لم اعد احتمل .
- حسنا .. سأبحث عن شخص اثق به وسأرسل بيده المبلغ . . سأتصل بعد يومين او ثلاثة .. سلمي لي على الجميع .
- مع السلامة .

كانت هذه هي اللغة المشفرة بيننا (نتكلم مثل ايام زمان) يعني ان هناك خطرا ، وكان الخطر هذه المرة هو ان التلفون كان مراقبا مثلما توقعت بالضبط . لذلك سأضطر الى توضيح هذه المكالمة .

قالت : كيف هي عمان ؟ هل انت مرتاح هناك ؟ وكانت تقصد انها غير مرتاحة في بغداد . وعندما قالت : ماذا سترسل لنا في هذه المرة ؟ كانت تقصد ان ارسل لها من يخرجها من العراق . وعندما قالت : اريد ان اجري عملية جراحية اخرى .. كانت تقصد انها مستعدة للهرب . وعندما قالت : اذا ارسلت لي مبلغا جيدا سأقوم بأجرائها فورا .. كانت تقصد ان يكون الاشخاص الذين سيهربونها من العراق اصدقاء موثوقين . وعندما قلت لها : المبلغ جاهز وقد جمعته من اجل العملية .. كنت اقصد انني خططت لعملية تهريبها . وعندما قلت لها : هل انت جاهزة للعملية .. انها ليست سهلة .. كنت اقصد ان عملية التهريب مليئة بالمخاطر وانها مجازفة كبيرة . وعندما قالت : اعرف .. اريد التخلص من الالم .. لم اعد احتمل .. كانت تقصد انها مازالت تتعرض الى مطاردة المخابرات . وعندما قلت لها : سلمي لي على الجميع .. كنت اقصد ان لا تخبر احدا بالخطة .

خرجت من المكتب وجلست قرب البياتي بعد ان شكرت الاستاذ ابو عبد الله على كرمه . قال ابو عبد الله : انتم ضيوفي اليوم ولا اقبل أي عذر .. كم مرة يلتقي المرء بشخص مثل البياتي ؟ نظرت الى البياتي الذي اومأ لي برأسه دلالة الموافقة . بعد قليل دخلت السكرتيرة فطلب منها ابو عبد الله ان تتصل بأحد الفنادق الراقية كي تحجز لنا طاولة وعشاء . في بار الفندق جلسنا نتحدث عن السياسة الرعناء التي ينتهجها الدكتاتور صدام حسين وكيف جرت العراق الى مآس مهلكة دمرت امكانيات البلد وحطمت الشعب العراقي وشردته في كل مكان . قال ابو عبد الله :

استاذ صلاح لقد اخبرني الاستاذ البياتي عن مشكلتك وانا اريد ان اساعدك .. انا اعرف ان العراقيين نفوسهم أبية ولا يقبلون مساعدات مجانية .. لذلك اقترح عليك ان تعطيني بعض المقالات كي انشرها في الجريدة وسأقوم بدفع المكافاة مباشرة سواء نشرت هذه المقالات ام لم تنشر . البياتي وجد ان الفكرة معقولة جدا ونبيلة ايضا ، ثم سألني ان كنت قد تحدثت مع زوجتي ؟ قلت انها ممنوعة من السفر ومراقبة من قبل المخابرات وانا افكر بتهريبها الى كردستان . سأل ابو عبد الله ان كان لدي اطفال فقلت ان لدي ثلاثة ، فقال انها عملية صعبة .. الا توجد طريقة اخرى ؟؟

قلت انني اريد ان ابعث لها اولا مبلغا من المال ولا اعرف مع من ارسله فبادر البياتي وقال : هناك صديق سيذهب الى بغداد بعد يومين انا سأرتب كل شيء .. لدي موعد معه غدا في الفينيق ، عليك ان تحضر المبلغ فقط . فتدخل ابو عبد الله وقال انها فرصة ان تجلب المقالات خلال هذين اليومين ؟ قلت غدا ان شاء الله .

في صباح اليوم التالي وانا جالس في مقهى العاصمة أهيئ مقالين لجريدة الشرق الاوسط ، كما وعدت ابو عبد الله .. دخل احد الاصدقاء وهو يحمل عددا من الاكياس وكان يبدو انيقا على غير عادته . قال : انا ذاهب غدا الى بغداد .. هل لديك أي شيء اوصله الى هناك ؟ قلت : لابد انك مبعوث من السماء .. اجلس .. فلدي رسائل مهمة الى اصدقائي في بغداد . قال : سأذهب لكي اضع هذه الاغراض في الغرفة ، سأعود بعد نصف ساعة .. وتكون انت قد كتبت الرسائل .

كتبت رسالتين قصيرتين واحدة الى زوجتي ، والثانية الى الصديق الشاعر خالد مطلك الذي سيقوم بتهريب زوجتي فيما بعد . كتبت لزوجتي ان عليها ان تتصل بخالد مطلك . كما قلت لها ان عليها ان تثق به تماما مثلما اثق به انا وان تشرح له الامر بهدوء وهو سيقوم بأنجاز الباقي ، والمبلغ سيصل بعد يومين . وكتبت الى خالد ان زوجتي ستجري عملية (جراحية) وانها بحاجة الى مساعدتك ، وسوف تتصل بك قبل ان تدخل الى المستشفى . وقد شددت على كلمة عملية لكي اوحي له انها عملية غير عادية . بعد ان عاد سمير اعطيته الرسالتين دون ان اضعهما في مظروف وقلت له ان بأمكانه ان يقرأهما اذا اراد . قال : اخبرني فقط بالمضمون . فقلت ان زوجتي ستجري عملية جراحية خطرة وقد كتبت الى خالد ان يدفع اجور العملية وسأسدد هذا الدين فيما بعد . قال أهذا كل شيء ؟؟ قلت نعم واضفت ان

الرسالة الموجهة الى زوجتي ينبغي ان تصل الى بيت اختها .. لان زوجتي لاتسكن في بغداد . ورجوته ان يذهب مساء لان اخت زوجتي تعمل الى ساعة متأخرة فقد لايجدها في النهار (اردته ان يذهب في الليل لانني كنت اخشى ان يكون البيت مراقبا ايضا) . ثم اخرجت ورقة نقدية فئة خمسة دنانير اردنية وقلت انها اجور التكسيات .. لا اريد ان اكلفك شيئا . رفض بشكل قاطع وقال عليك ان تخجل نحن اكثر من اصدقاء .

اخيرا شعرت ببعض الراحة وبدأت استعيد ثقتي بنفسي ، فحولي الكثير من الناس الرائعين وهم مستعدون لمساعدتي . هيأت المقالين وقررت ان اذهب الى مكتب الجريدة بسيارة تكسي . استقبلني ابو عبد الله وقدم لي قهوة عربية اصلية . لم اكن اعرف ان القهوة العربية الاصيلة ذات لون اخضر غامق وذات نكهة مختلفة تماما . وبعد ان اعطيته المقالات نادى على السكرتيرة واعطاها ورقة صغيرة .. عادت بعد قليل وسلمتني مئة وخمسين دينارا اردنيا (٢٢٠ دولارا تقريبا) وقالت ارجو ان توقع هنا .. هذه مكافأة عن المقالين . لقد اصبح لدي الان اكثر من سبعمئة دولار ، وهذا المبلغ يكفي عائلتي شهرين او اكثر فيما اذا حالفهم الحظ ووصلوا الى كردستان.

مازال الوقت مبكرا للذهاب الى الفينيق .. فموعدي مع البياتي في السادسة مساء .. لدي الان اكثر من اربع ساعات . كانت هناك غرفة معروضة للايجار قرب الجامعة الاردنية ضمن سكن للطلاب وهي رخيصة جدا فقررت ان اذهب لرؤيتها . لم تكن في واقع الامر غرفة . كانت عبارة عن (بالكونة) مغلقة بنوافذ زجاجية وقد طليت النوافذ بطلاء غامق اللون . لقد كانت صغيرة جدا ولم يكن لدي خيار اخر . ثم انني طيلة الوقت في المدينة وغالبا ما اعود متأخرا . انها مؤقتة مثل كل الاماكن التي سكنتها فلم لا استأجرها ؟ دفعت الى صاحب النزل عشرين دينارا اردنيا هو ثمن الايجار لشهر واحد . وقبل ان يسلمني المفتاح قال : المطبخ مشترك والحمام والتواليت كذلك وهناك شيء اخر.. لا ينبغي علي ان افتح النوافذ عصرا لان هناك عوائل محترمة (متدينة) تسكن في العمارة المقابلة .

علي الان ان اذهب الى وسط المدينة لشراء فراش وغطاء وبعض اللوازم وهي مهمة سهلة . ذهبت اولا الى الساحة الهاشمية ، حيث يتجمع العراقيون المشردون . اشتريت بطانيتين جديدتين من امرأة عراقية عجوز (معاناة النساء العراقيات في عمان لاتوصف وموقف السلطات الاردنية منهن مخز ومقرف للغاية) . ثم اشتريت فراشا خفيفا وبعض الاقداح والملاعق والصحون وطباخا نفطيا صغيرا (جولة) للقهوة ووضعتها جميعا في تكسي وعدت الى الغرفة البلكونة .

عندما وصلت الى الفينيق كان البياتي جالسا الى طاولته المعتادة ومعه شخص لم اره من قبل . قال البياتي اقدم لك الاستاذ (من المؤسف انني نسيت اسمه) وهو الذي سيوصل المبلغ الى زوجتك . رحبت به كثيرا وانا اشكره مقدما على حسن صنيعه . اخرجت ستمئة دولار مع ورقة صغيرة كتبت عليها عنوان اخت زوجتي وتلفونها وقدمتها اولا الى البياتي الذي سلمها بدوره الى الرجل . بعد نصف ساعة غادر الرجل وبقيت انا والبياتي الذي لاحظ انني منفرج الاسارير على غير العادة . قلت له : استاذي ابو علي ، اليوم حدثت اشياء كثيرة غير متوقعة .. بالمصادفة كان هناك صديق ذاهب الى بغداد ارسلت بيده رسائل الى زوجتي وبعض الاصدقاء الذين من الممكن ان يساعدوا زوجتي . وبالمصادفة استأجرت اليوم غرفة صغيرة سأنام فيها الليلة دون ان ازعج الاصدقاء .. وهاانا الان ابعث المبلغ الى عائلتي بقلب مطمئن فماذا اريد اكثر من ذلك ؟ قال البياتي بمرح .. تريد ان تسكر الان اليس كذلك ؟ وقبل ان اجيب قال : اوقف لنا تكسي .. سنذهب الى (الهورس شو) .

❖ ❖ ❖ ❖

عاد رجال المخابرات العراقية يراقبونني من جديد بعد ان قدمت محاضرة في مقر الحزب الشيوعي الاردني عن الحرب والانتفاضة . وكنت قبل ذلك قد نشرت الكثير من المقالات التي تندد بسياسة الدكتاتور في صحف اردنية واخرى تصدر في بريطانيا والخليج . كنت اذا ذهبت الى المقهى وجدت احد رجالهم هناك ، وفي غاليري الفينيق ايضا ، وفي الحانات .. حتى ضاقت المدينة في وجهي . (اغتالت المخابرات العراقية في سنوات التسعينيات عددا من العراقيين في عمان) . كنت اشكو الى البياتي وكان يهز رأسه بألم دون ان يتكلم . لذلك قررت ان لا اذهب الى الحانات الا مع البياتي .. وان لا ارافق احدا لا اعرفه معرفة جيدة الى أي مكان . كما قررت ان ابتعد عن مقهى العاصمة .

غير ان ذلك لم يحل المشكلة لانني كنت معتادا على الكتابة في المقهى او في الغاليري ، وان اغلب المواعيد كانت في هذين المكانين .. خصوصا الموعد اليومي مع البياتي . والاهم من كل ذلك هو انني انتظر تلفونا من زوجتي اذا حالفها الحظ واستطاعت الهرب من العراق . وصلت التهديدات الى حد ان احدهم وقف في غاليري الفينيق ، وامام عدد كبير من الجالسين وقال : (اسمع .. نحن نستطيع ان نكسر رأسك في اية لحظة) .. وخرج دون ان يرف له جفن . وبعد يومين فقط عاد الشخص نفسه الى الغاليري فأسرع علي الشلاه يخبرني بوصوله .. اختبأت في التواليت ، وكان علي يراقب الموقف .. وبعد ان خرج ناداني علي : لقد ولى اليغير رجعة ان شاء الله .

نصحني احد الاصدقاء بمغادرة الاردن فورا .. ولكن الى اين اذهب وكل السفارات العربية مغلقة في وجه العراقيين ؟! واقترح احدهم ان اطلب اللجوء السياسي الى اية دولة توفر لي الحماية . وهذا ما حصل، اذ ذهبت الى المفوضية العليا لشؤون اللاجئين وشرحت لهم ما يحصل معي . بعد نصف ساعة حصلت على الموافقة واصبحت لاجئا سياسيا . ولكنهم قالوا لي انهم لايستطيعون حمايتي واكتفوا بتقديم مجموعة من النصائح : ان اتوقف عن النشر ، ان لا اخرج كثيرا من البيت (الغرفة) ، ان لا اكون كثير الحضور في الاماكن التي يكثر فيها العراقيون . !! بأختصار .. ان اسجن نفسي طوعا ، وهذا بحد ذاته لا يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة لي .. المشكلة هو كيف اعرف اخبار زوجتي واطفالي ؟؟؟

اقترح احد المحامين الذين يعملون في الامم المتحدة اسمه سامر حدادين (وهو شخص في منتهى النبل) ان احضر الى مكتبه واتصل بزوجتي من هناك ، كما يمكنني ان اعطيها رقم هاتفه اذا ارادت الاتصال بي وسيكون هو واسطة بيننا . كان حلا معقولا جدا جعلني اشعر براحة البال . قال : تستطيع الان ان تأتي معي وتتصل بها . قبل ان ارفع سماعة التلفون اخبرت المحامي انني استخدم لغة مشفرة مع زوجتي لان تلفونها مراقب .

- هلو .. جوليانه ؟ انا ابو اصيل
- هلو عيني .. كيف حالك ؟ لقد وصل المبلغ .
- هل راجعتي المستشفى ؟
- نعم .. الفحوصات ايجابية والدكتور قال ان العملية ستنجح ان شاء الله ولكنها ليست سهلة .
- ومتى ستجرين العملية ؟
- الدكتور قال راجعيني بعد اسبوع وسأخبرك بموعد العملية .
- حسنا .. سأتصل بك بعد عشرة ايام لكي اطمئن .
- ان شاء الله .. واذا لم تجدني فهذا يعني انني خرجت من المستشفى .
- الله كريم .. لاتنسي ان تسلمي لي على الجميع .
- مع السلامة .

كان المحامي ينظر الي متلهفا .. نزع نظارته وقال سأجلب لك قهوة ... قلت اشكرك .. هل اشرح لك ما دار بيننا ؟ قال من فضلك .

لقد سألتها ان كانت قد راجعت المستشفى .. وكنت اعني .. هل اتصلت بالشخص (الشاعر خالد مطلك) الذي سيقوم بتهريبها ؟ فقالت : نعم .. الفحوصات ايجابية والدكتور يقول ان العملية ستنجح ولكنها ليست سهلة . وكانت تعني انها اتصلت بهذا الشخص وانه مستعد لتهريبها رغم انها مجازفة كبيرة . وعندما سألتها متى تجري العملية .. كنت اعني هل اتفقت مع الشخص على تاريخ معين للتنفيذ ؟ قالت : الدكتور قال راجعيني بعد اسبوع وسأخبرك بموعد العملية .. وكانت تقصد ان الشخص طلب منها ان تنتظر لمدة اسبوع حتى يرتب جميع التفاصيل . وعندما قلت لها .. سأتصل بك بعد عشرة ايام كنت اعني انني بالفعل سأتصل بعد عشرة ايام لانها لاتعرف بالضبط متى ستكون الامور جاهزة . ولكنها قالت : اذا لم تجدني فهذا يعني انني خرجت من المستشفى .. وتقصد بذلك انها ستكون قد هربت .